مي زيادة

وَرْدَةُ اليَازجِي

الكتاب: وردة اليازجي

الكاتبة: مي زيادة

الطبعة: ٢٠١٧

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣



http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

زيادة، مي

وردة اليازجي / مي زيادة

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

الترقيم الدولى: ١- ٢٩٠ – ٤٤٦- ٩٧٧- ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : **٤٦٨٩ / ٢٠١٧**

وَرْدَةُ اليَازجِي





كلمة

هذه الرسالة الوجيزة التي ستقرأ أُلقيَتْ محاضرةً في جمعية الشابات المسيحية في منتصف شهر مايو سنة ١٩٢٤م ونُشرت تباعًا في «المقتطف».

تُوفيت وردة اليازجي في مطلع تلك السنة بمدينة الإسكندرية. والأستاذ سليم سركيس صاحب الأسلوب اللبق الخاص في التمهيد لبعض الموضوعات والتنبيه إلى ما يحب من الأغراض، نشر يومًا في مجلته خطابًا منه إلى وردة اليازجي في السماء، وأخبرها في الختام أني عاكفة على درس آثارها على الطريقة التي درستُ بها «باحثة البادية» من قبل. فوقعت كلمته مني موقع الحضِّ والاستحثاث. وأردت أن أقوم بالواجب نحو اليازجية، مع علمي بصعوبة الكتابة عنها؛ لتشابه المعاني التي تركتها في الشعر والنثر وخلو آثارها مما قد كان يرسم صورة من طبيعتها وميولها الصميمة.

وإذ تلقيت دعوة الجمعية لإلقاء محاضرة مع الحرية في اختيار الموضوع، كان خيال الست وردة يطوف في خاطري، وديوانها بين يديَّ أقلبُ صفحاته وأستخرج عصيره.

ولا يسعني هنا إلا أن ألمِّح ولو بإشارة طفيفة إلى تقديري لجهود العاملات من اللاتي سبقن جيلنا، ففتحن لنا الطريق. أقول: «فتحن الطريق» مع أنهنَّ وضعن عند عتبة المجاهل علامةً ليس غير. على أن لتلك العلامة قيمتها وفائدتها، لا سيما إذا ما ذكرنا الوقت الذي وُضعت فيه. فبقي علينا نحن أن نستكشف طبيعة المرأة الشرقية لنسجلها في الوجود، ونسعى بعدئذٍ لإنمائها وصقلها فنبرزها كما هي في جوهرها تحفةً وينبوعًا وذخيرةً.

إنَّ خير ما تركته شاعرتنا أبيات النوح والرثاء. وهي لم تكن تدري أنها ستنشئ بعد وفاتها «قصيدة» من أنفع قصائدها. ألا وهي أن تُباع هذه المحاضرة التي أوحاها اسمها في سبيل إعانة المنكوبين ببلادها.

ألا فلترُفرفْ هذه الفكرة على مضجعها الأخير رفرفة رقيق النسمات وحبيب الذكريات!

«مي»

وَرْدَةُ اليَازجِي

أيتها السيدات والأوانس!

أكادُ أشعر بأني معبِّرة عن رأي كلٍّ منكنَّ بتحبيذ هذه الاجتماعات النسوية والتنويه بالفائدة منها والنتيجة؛ لأنَّ المرء كثيرًا ما يتجرَّدُ من شخصيته الصميمة أمام من يختلف عنه بطبيعته وأحوالهِ، وذلك ليهتمَّ بأمور غريبة عنه وقد لا تروقهُ دائمًا.

وفي هذا التجرُّد من الشخصية لاستيعاب ما هو غريب عنَّا غيرية ممدوحة توسِّعُ النفس وتهيِّئها للإلمام بجزءٍ أكبر من الحياة. ولكنَّ من طبيعة الإنسان – فردًا كان، أم مجموعًا، أم جنسًا – أن يرجع إلى نفسه حينًا بعد حين. فيتعهَّدها بالسكوت والتأمُّل، أويتحدَّث عنها بأسلوب من الأساليب، أو هو يصغي إلى المتحدِّثين عن نفوسهم أو عن نفوس الآخرين بما في وجدانه من الخوالج الواضحة أو المبهمة.

ولمّا كنا في مثل هذا الاجتماع عاكفات على شئوننا النسوية دون رقيب أو محاسب، تيسَّر لنفوسنا أن تصفو من الشوائب، فتستسلم لما يجوز أن نسميه «مغناطيس الخير».

وما هو إلَّا ذلك الفيض الذي يغمر كلَّ جمهورٍ التأمَ لغرضٍ نبيل. فيدفق في كلِّ قلب وينعش منه القوى، ويحمله على تقدير ممكناتهِ وتقدير الحياة. فيعود القلب جذلًا كأنهُ وجد نفسه فهزَّته عواملُ العطفِ والصلاح والنشاط وحبِّ السعي لغاية نافعة.

وإني لشاكرة لهذه الجمعية الكريمة دعوتها. ولكنتُ أشكرها الشكر ذاته لو هي دعتني أصغي إلى إحداكنَّ بدلًا من التحدُّث إليكنَّ. فإن كل امرأة مخلصة يسمعُ الشرقُ صوتها في هذه الأيام إنما تترجم عن بعض ما يخامر جميع الشرقيات. ويزيد في سروري أن يضمَّ هذا الاجتماع طائفتين من الطوائف التي تعلِّق عليها البلاد أعزَّ آمالها؛ أعني طائفة المعلمات وطائفة المتعلِّمات.

تساءل يومًا لورد بايرن الذي احتُفل أخيرًا بيوبيله المئوي: «ما هو الشعر؟» ثم أجاب: «هو الشعور بعالمٍ مضى وعالمٍ مقبل.»

وهذه الكلمة من خير ما يُعرَّف بهِ طور التربية والتعليم. أي إن المنحنى على النفوس الفتية يعالج إنماءَها وصقلها لا بدَّ له أن يسبر

غور الماضي ليكون على بصيرة مما يمكنه أن يعدَّ للمستقبل من الشخصيات الصالحة.

هي هذه الفكرة – وقد علمتُ أن هذا الاجتماع سيضم الناظرات والمعلمات والطالبات من مدارس الحكومة – التي ساقتني إلى الكلام عن وردة اليازجي، وهي من أشهر النساء اللائي عرفهنَّ تاريخ الآداب العربية ومن أذكاهنَّ وأفضلهنَّ.



الفصل الأول

لمحة في حياتها

يُخيَّلُ إليَّ أن آلهة اليقظة والنشاط شاءت أن تتفقَّد الشرق حوالي منتصف القرن الماضي، فنشأت فئة من فُضليات النساء على مقربة من الرجال الذين قُدِّر لهم أن يكونوا عاملين في صرح الشرق الجديد. فوُلدت عائشة عصمت تيمور في مصر سنة ١٨٤٠م، ووُلدت في تلك الأعوام بسوريا وردة الترك، ووردة كبا، ولبيبة صدقة وغيرُهنَّ. ووُلدت زينب فواز صاحبة «الرسائل الزينبيَّة» و«الدُّر المنثور»، في صيدا سنة ١٨٦٠م.

ووُلدت في العام نفسهِ فاطمة عليَّة ابنة المؤرخ التركي جودت باشا. وهي رغم كونها كتبت بالتركية فإن لها الحقَّ أن تُذكر بين أديبات العرب؛ لأنها عرفت لغتهنَّ، وانتشر صيتها في أقطارهن، وعاشت طويلًا في بلادهن التي جاءتها طفلةً في عامها الثالث يوم تولَّى والدها ولاية حلب بعد أن كان وزيرًا للمالية في الدولة العثمانية. ويوم أن وُلدت زينب فواز وفاطمة عليَّة، أي سنة ١٨٦٠م، كانت وردة اليازجي في الثانية والعشرين من عمرها. لأنها وُلدت سنة ١٨٣٨م، هي ومريانا مرَّاش الشاعرة الحلبيَّة في عام واحد.

تذكُرنَ، أيتها السيدات، أن ذوي المواهب البارزة ينقسمون إلى فريقين أوَّلين، ينقسم كل منهما بعدئذٍ إلى أجزاء صغيرة شتَّى؛ وهما أولًا: الفريق الذي يشذ عن محيطهِ ويسبق جيلهُ بإدراكهِ وفطنتهِ وابتكارهِ. وثانيًا: الفريق الذي هو ابن محيطهِ وابن يومهِ، تتلخص عندهُ مدركات جماعتهِ وعواطفها فيحدثهم عنها بلهجةٍ بليغة قريبة المنال.

والفريق الأول يكثُر مناهضوه في الغالب فيظل منفيًّا في قومهِ، غريبًا في جماعتهِ. إنْ هم أنالوه مرَّةً ما لا يضنُّون بهِ وبأكثر منه على من هو دونهُ، فإنهم يكفِّرون عن ذلك بتعذيبهِ بعدئذٍ ووضع العراقيل في سبيله ما استطاعوا. ولا ينفك الحسد والعجز يهاجمانهِ بالدسائس والوشايات والتحريف والانتقاص، غير مغتفرين له ما تفرَّد بهِ. قلائل هم أبناء هذا الفريق. ولكنهم رسل الإلهام.

بل هم المستقبل الذي يحيا في الحاضر، ومنهم تنبثق الأفكار الكبيرة والآراء النيِّرة، وأياديهم هي التي تنثر أنفس البذور، وأصواتهم هي التي ترسل أجرأ الصيحات. فلا يُثمر جهادهم إلَّا بعد وفاتهم؛ يوم يشبُّ النشء الجديد متوقدًا يقظًا فيتلقف مبادئهم ويحققها شيئًا فشيئًا. وإني لأضرب لكُنَّ مثلًا بواحدٍ من هؤلاء؛ وهو قاسم أمين الذي اضطُهد في سبيل دعوتهِ إلى الإصلاح الاجتماعي. وتولَّى ربعُ قرن تقريبًا، فإذا بآراء قاسم أحيا اليوم منها في حياتهِ. لقد أنضجها

الدهر على مهل. فتناولتها بمعانيها الأصلية القويمة فئة من صفوة رجال الأمة ونسائها.

أما الفريق الآخر فيتكلم بلغة أبناء جيلهِ، ويعبر عن حاجتهم، ويشعر بما بهِ يشعرون. فيكونون أقرب إلى فهمهِ وأبعد عن مناهضتهِ؛ لأنه ثمرة هذا الوسط؛ نشأ على ما كان ينبغي أن ينشأ، وأظهر من شخصيتهِ مثالًا كريمًا وجاء بأحسن ما يُنتظر منهُ. وكأنَّ أهل هذا الفريق هم الذين يغذُّون الجمهور بما يناسبه لينمو، ويقودونه خطوةً خُطوةً نحو مستقبل يصير عنده أهلًا ليدرك ما يريده أهل الفريق الأوَّل؛ جماعة الشاذين والخياليين والنَّظريين كما يسميهم «العمليُّون»!

من أهل الفريق الثاني كانت وردة اليازجي. نشأت في أسرة يقوم على رأسها ذلك الأستاذ الكبير والدها الشيخ ناصيف الذي كان في طليعة العاملين لإيقاظ الشرق الأدنى من غفوتهِ. وقد اقتفى أثره في الفضل والده العالم اللغوي الشيخ إبراهيم، والأديب الشاعر الشيخ خليل اليازجيان، فكانت هي باستعدادها الأدبي وتوقُّد جنانها جديرةً بأن تكون ابنة هذا الوسط بالمعرفة والاجتهاد كما هي ابنته بالدم والقُربى.

وُلدت في قرية كفر شيما من ساحل لبنان، وانتقلت مع عائلتها طفلةً إلى بيروت؛ حيث تعلمت في مدارس الأمريكان الصغرى،[1] وتلقت على سيدة يهودية متنصرة مبادئ اللغة الفرنساوية. ثم عُني بها والدها فدرَّسها أصول اللغة في كتبهِ وتوسَّمَ فيها استعدادًا للشعر فمرَّنها عليهِ بأن كان يراسلها نظمًا عند تغيُّبِهِ عن المدينة، ويعهد إليها في الردِّ على بعض مُراسليهِ من الشعراء.

فقرضت الشعر في الثالثة عشرة من عمرها، وتعاطت التدريس مدةً في إحدى المدارس الأهلية. وكانت في بيت والديها تساعد على الاعتناء بتربية أخواتها وإخوتها الاثني عشر وهي رابعتهم. وظلت بعد زواجها ابنة وسطها وابنة يومها؛ شرقية تلبس الطربوش، وتأتزر عند الخروج من البيت، وتشرب القهوة التركية على وقع نقير الماء المعطر في قلب الشيشة الفارسيَّة، وتنتسب لأسرة أبيها على الطريقة العربية.

ولا علم لنا بتاريخ حياتها الفردية، وهل هي كانت بها سعيدة أم غير سعيدة. ولا أثر لتلك الحياة الخاصَّة في شعرها الذي لا يرسم إلَّا الخطوط الظاهرة، ولا يتكلَّم إلا عن الحوادث المألوفة من زواج وولادة وموت. وإذ أستجوبُ صورةً لها من صنع شقيقها الشيخ

[1] لم تكن «للمدارس» أبنية في تلك الأيام على ما قيل لي. وإنما كان يجتمع التلاميذ والتلميذات تحت شجرة سنديان في الغالب فيتلقون دروسهم هناك.

إبـراهيم وهـي فـي سـن الخمـسين – أشـعر بوضـوحٍ أنهـا كانـت فـي طبيعتها أغنى منها في شعرها.

ففي هـذه الصورة الجاذبة ذات العينين العميقتين معانٍ وأغوارٌ لـم تبـدُ فـي قـصائدها. وأرى فـي الـشفتين المطبقتين بلُطف وإحكـام مصداقًا لما قيـل لي إنها كانت عليهِ من قوة الإرادة والعزم والتروِّي والتبـصُّر.[٢] حتـى إذا شـاءت أن تـتكلم كانـت مـن فـصاحة النطـق وبراعـة الحـديث؛ بحيـث يـصمت شـقيقها الـشيخ إبـراهيم تهيُّبًـا فـي حضرتها، فيكون لها الحديث ويكون له الإصغاء. قد يرى الأشرار في هـذا مجالًا جديـدًا للطعن في المرأة فيقولون إن الـشاعرة كانـت تتكلم بدافع حبِّ جنسها للكلام، وأن أخاها كان يسكت لأنه رجل .. ولكـن لا نَنْسَيَنَّ أن هـذا رأي الأشـرار، وأننـا مـن الـصالحين الـذين يكتشفون الفضل في معدنهِ.

وكـان زوجهـا مـن أهـل العلـم كـذلك؛ فظلـت تـنظم بعـد الـزواج، واستخرجت من منظوماتها ديوان «حديقة الورد» الذي طُبع أوَّل مرَّة في بيـروت سـنة ١٨٦٧م؛ أي بعـد زواجهـا بعـام واحـد. وأُعيـد طبعـه بعد عـشرين سنة. ثـم طُبـع مـرة ثالثة سـنة ١٩١٤م في مطبعة هنديـة

[٢] حيَّتني بعد المحاضرة سيدة قالت إنها تمتُّ إلى أسرة الشاعرة بأواصر النسب، وتجمعها بها الصداقة الشخصية. ثـم أيدت ما ذكرته عن أخلاق السيدة وردة بقولها: إنهم في عائلتها كـانوا يستشيرونها في جميع الأمور، وقد أطلقوا عليها اسم «الشيخ محمود». فما اختلفوا في شيء أوكانوا عند البت في شأن إلا وقالوا: «هاتوا الشيخ محمود! أين الشيخ محمود يفُض المشكل؟»

بمصر. وكانت تضيف إلى كل طبعة جديدة خير ما نظمته في تلك الفترة، حتى استقرت الطبعة الثالثة على نحو مائة صفحة من القطع الكبير. وهي هذا الكتاب الذي ترين، أيتها السيدات.

وإني لأرجو السيدة نور الهدى[٣] أن لا تعاقبني هذه المرَّة لأن كتابي ممزَّق. إني شديدة الحرص على كتبي عادةً. وما أصبحت «حديقة الورد» على هذه الحالة المهشمة إلا لأني أكثرت من معالجتها وتعذيبها في هذا الأسبوع إرضاءً لكُنَّ يا سيداتي. وأحرجني الوقت فلم يسمح لي بتجليد الكتاب.

وكانت الشاعرة قد انتقلت بعد وفاة زوجها سنة ١٨٩٩م إلى الإسكندرية فصرفت فيها بقية حياتها مع ولدها الدكتور سليم شمعون، من خيرة أطباء الثغر. ولها ابنة تُدعى لِبِيبَة يظهر أنها نشرت بعض آرائها في الصحف، ولكني لم أطَّلع على شيءٍ من تلك الكتابات. وتُوفيت الشاعرة في أوائل هذه السنة وهي في مطلع عامها السابع والثمانين. فذوى بها الغصن الأخير من الدوحة اليازجية الأثيلة.

---

[٣] السيدة نور الهدى من خيرة المصريات النابهات، هي اليوم ناظرة مدرسة المعلمات بشبرا، وكانت يومئذٍ ناظرة مدرسة المعلمات الأميرية ببولاق، وكانت في كرسي الرياسة. وقد مهدت للمحاضرة بخطبة جميلة ذكرت فيها السيدة وردة والأسرة اليازجية أجمل ذكرى، وشكرت هذه الفرصة التي أُتيحت للكلام عنها.

الفصل الثاني

ديوان حديقة الورد



يقول السيد جورج باز، نسيب الشاعرة، مناصر المرأة في سوريا، ومن أخلص مناصريها في العالم: إن «حديقة الورد» هو الديوان الوحيد الذي طُبع ثلاث مرَّات لشاعر معاصر.

وعلى كلٍّ فهو الأثر الوحيد الباقي من آداب وردة اليازجي، ولا شك أنها اقتبست اسمه من اسمها. كما يلوح أن اسم الورد المتواتر في كتابات الشعراء كان يذكُره بلذةٍ أدباءُ عائلتها، ولو أنهم عُنوا بهِ رمزًا غريبًا، كأنه صار يخصُّهم أكثر من غيرهم لاتصال شاعرتهم بهِ. ففي ديوان أخيها خليل المدعو «نسمات الأوراق» أبيات شجية عن الورد. هذا مثال منها:

ألا روِّحوا روحي برائحة الوردِ فقد جاءنا فصل الربيع من البُعدِ
ألا متِّعوني مرَّةً من شميمهِ فيذهب عني بعض ما بي من الوجدِ
ولله ورد ليس يبرحُ ناضرًا فلم يكُ مختصًّا بشهر له فردِ[1]
أتوق إليه مثلما اشتاق آيلٌ إلى ما بهِ يروي ظماه من الوردِ

---

[1] أي إنه يُزهر في كل شهر، ولا يقتصر على «مايو» الذي يدعوه الإفرنج «شهر الورد».

وأهفـو لأنفـاس النـسيم إذا أتـى   لنـــا مـــن لدنـــه حـــاملًا أرج النـــدِّ

كذلك نتخيل أن ابن شقيقتها الشيخ نجيب الحداد متشبع من ذكرها عندما يترنم بذكر الورد في ديوان «تذكار الصبا» حيث يقول فيما يقول:

لشخصك من زهر الرُّبى لقبُ الورد   وهيهات ما للورد حسنك في الودِّ
تفوقينـــه ريحًـــا ولونًـــا ومنظـــرًا   وبقيًـا علـى طـول المـودَّة والعهـدِ
فللـورد شــهرٌ واحــدٌ ثــم ينقــضي   ووردك بــاقٍ لا يــزول عــن الخــدِّ
فسبحان من أنشاك شخصًا وقد حوى   رياض جنان الخلد باسمٍ من الوردِ

وقال شقيقها الشيخ إبراهيم في تقريظ ديوانها:

هـذي حديقـة ورد عـزَّ جانبهـا   وحبــذا روض وردٍ يُفـرج الكُربَـا
من طافها يرَ فيها الدرَّ منتظمًا   والطيب منتشرًا، والسكر مختلبا
كالورد نضَّده في روضهِ سحرًا   درُّ النـدى، أو كـراحٍ كللـت حببـا
أو بحر خمرٍ بماء الورد ممتزج   والجـوهر الفـرد فيـهِ يمـلأُ العُببـا

وهـذه كما يظهـر أبيات تقريظ للإرضـاء لا للتعبير عـن رأي فـي المجموعة.

ولقـد دُعيـت الـوردةُ ملكـةَ الزهـور منـذ أقـدم العـصور، وتغنَّـى بمدحها شعراءُ جميع الأمم؛ فزعم الإغريق في أساطيرهم أنها نشأت من قطرة من دم أدونيس حبيب الزهرة. أو من قطرة كوثر تناثرت من يد الآلهة يوم ولادة هذه الزهرة، ربَّة الجمال. وحسبها آخرون منوَّرة

من ابتسامة إله الحب، أو متساقطة من رأس إلهة الفجر عند تسريح شعرها في الضحى.

ومهما كثرت الرموز فالوردة ما زالت كما كانت دوامًا زهرة الأحزان كما هي زهرة الأفراح. ترمز إلى الشباب والجمال والحبِّ، كما تُستعمل في الزينة والأرواح العطرية والأدواء الطبية. وتتناسق منها الأكاليل؛ أكاليل الوداع، على قبور الأحباب ونعوش الراحلين، كما نراها جميعةً ومُفرَّقة في حفلات الأُنس واللهو والطرب.

وذلك شأنها عند وردة اليازجي.

ففي حديقتها ورود باهتة في اللطف والمجاملة، وأخرى حمراء قانية في المودَّة والشوق، والقسم الطامي هو ورود قاتمة؛ ورود الفراق والحداد، وورود الرثاء والنحيب المبللة بدموع العين، المضمخة بزفرات القلوب.

الفصل الثالث

شعرها

(أ) ورود المجاملة الصافية

كل ما نظمته ينقسم إلى قسمين: المدح والرثاء.

ففي باب المدح يدخل شعر التقريظ والترحيب والتراسل مع أدباء العصر وأديباتهِ. فهي تستهلُّ حديقتها بأبيات ردَّت بها على الشاعرة وردة ابنة نقولا الترك الشاعر. والشطر الأول من المطلع سار في الآداب السورية مسير الأمثال وصار نعتًا للسيدة وردة. وهو:

يا وردة الترك، إني وردة العربِ فبيننا قد وجدنا أقرب النسبِ
أعطاكِ والدكِ الفنَّ الذي اشتهرت ألطافه بين أهل العلم والأدبِ

وقالت تجيب شاعرة أخرى، وردة كبَّا (ويظهر أن الشعر في ذلك العصر كان محظوظًا «بالوردات»):

أزهار ورد قطفناها بأبصارِ ونشر ورد شممناه بأفكارِ
ووردةٌ أثمرت في القلب إذ غُرست ولم أرَ وردةً تأتي بأثمارِ
لقد سمت في الورى قدرًا، فلا عجب فالوردُ بين الورى سلطان أزهارِ

ولئلَّا تؤاخذ بامتداح نفسها عن طريق غيرها فقد استدركت في الختام بقولها:

بيني وبينك في أسمائنا نسبٌ لكنما بيننا فرق بأقدارِ
والورد من بعضِ النسرين يشبههُ في العين، لكنه من طيبهِ عارِ

هذا أسلوب من التواضع في الشعر العربي، ونجده كما نجد معاني المدح ذاتها مكرَّرة تقريبًا في كلِّ قصيدةٍ وجهتها إلى مراسليها ومراسلي والدها من مصريين وعراقيين وسوريين. فقد ردَّت على عالِمٍ من أصدقاء والدها بقولها:

سلامٌ فاح كالورد النصيبي يُساقُ لذلك الربع الخصيبِ
إلى من في الكمال له صفات كمسكٍ فاح منه كلُّ طيبِ
قصائده كضوءِ الشمس تجري ولكن لا تصادف من غروبِ

وتهدي إلى أمين بك سيد أحمد في الإسكندرية نسخة من ديوانها فتقول:

هذي حديقة ورد قد بعثتُ بها إلى حديقة فضلٍ في الورى عظُما
سيَّرتها نحو غيثٍ طاب موردهُ مشفوعةً بثناءٍ أشبه النسما
يشدو بها كلُّ بيتٍ في مناقبهِ حلا بوصفك نظم الشعر فابتمسا

وجوابًا على رسالة أخرى من أديب مصري:

أهلًا بخودٍ إلينا أقبلت سحرًا تزهو كبدر الدجى تحت الظلام سرى
أرى عليها لآلي النظم زاهرةً من بحر علم يروق السمعَ والبصرا

جاءت من البحر فوق البحر زائرةً فليس نعجب أن أهدت لنا دُررا

وقالت مرحِّبة بالأميرة تاج الشهابية وقد جاءت «رأس بيروت»:

ما لي أرى من بيروت مبتسمًا والزهر ينبتُ فوق الروض أفواجا
وقلت ماذا اقتضى هذا السرور لها قالوا رأت في أعالي رأسها تاجا

ورحلت تلك السيدة إلى مكان يقال له «الوادي»، فقالت الشاعرة:

تحيةً من مشوقٍ زائدِ الغُللِ تُهدَى إلى تاج مجدٍ من ذوي الدولِ
لطيفة الذات يهديها النسيم إلى وادٍ له الشوق في الأحشاء كالجبلِ
إلى التي صار قلبي اليوم مسكنها كأنها الشمس حلَّت منزل الحملِ

وأصْغِينَ جيدًا إلى هذا البيت:

يا من بها زهت الأيام قائلة لا تحسبوا أنَّ كلَّ الفضل للرجلِ

وحيت البرنسِسْ نازلي المصرية يوم زارت لبنان كما حيت الأميرة نايلة شقيقة السلطان عبد الحميد، ومما قالته في الترحيب بها:

يا ثغر بيروت البهيج، تبسَّمِ وبحمد خالقك الكريم ترنَّمِ
اليوم زارتك المليكة فاكتست شرفًا ربوعك بالطراز المعلمِ
هي غصن دوحة آلِ عثمان الأُلَى شادوا فخارًا ليس بالمتهدِّمِ
قومٌ لهم شرف الخلافة والعُلا بين الملوك من الزمان الأقدمِ

ومنها هذا البيت الذي أودُّ أن أوجِّهَه إلى كل فاضلةٍ من أخواتنا المحجوبات:

خودٌ بدت تحت اللثام، ومجدها   قد لاح بين الناس غير ملثَّم

وجوابًا لعيسى أفندي إسكندر المعلوف المؤرِّخ والعضو في المجمع العلمي بدمشق:

أهــلًا بــأكرم غــادةٍ   أهدى بها المولى الخطيرْ
باتــت تطــارحني حــد   يثًــا رقَّ كالمــاءِ النميــرْ
عــذبٌ يــروق زلالــهُ   وردًا، ويُــشرب بالــضميرْ
مــن كــل قافيــة بــدتْ   كــالزهر فــي الــروض المطيــرْ
ولطيــف معنًــى كالنــسيم   جــرى بأنفــاس العبيــرْ
خلعــت علــيَّ مــن الثَّنــا   ثوبًــا بمرســلها جــديرْ

وقالت مقرِّظة تاريخ الصحافة العربية للفيكونت فيليب طرازي، وقال لي حضرته: إن هذه الأبيات آخر ما نظمتْ:

يا ذا الهمام الذي أحيت عنايتهُ   تاريخ كتَّابنا من سالف الزمنِ
خلَّدت ذكر الصحافيين فيهِ كما   أوليتهم منَّةً من أعظم المننِ
فلتروِ فضلك منهم ألسنٌ بقيتْ   وليشكرنَّك عظْم في التراب فنِي

وقالت حينما انتُخب دولتلو سليمان أفندي البستاني مبعوثًا عن بيروت:

أخلِق ببيروت دار العلم من قدمٍ   أن تصطفيك على الأيام معوانا
فاللهُ لما ارتأى إعلان حكمتهِ   ما اختار من شعبهِ إلَّا سليمانا

ومـن أهـمِّ هـذه المجـاملات مـا راسـلت بـهِ الـشاعرة المـصرية عائشة عـصمت تيمـور، التي أثنـت عليهـا في مقدمـة ديوانهـا «حليـة الطراز» ثـم أهدت إليها نـسخة منهُ. فعقـب ذلـك مـساجلة لطيفـة في الـشعر والنثر؛ حيـث تبـارت كـل مـن الـشاعرتين في مـدح صـاحبتها وتنـضيد القـول. وقـد أثبتـت هـذه المراسـلة زينـب فـواز فـي «الـدر المنثور». أما فـي «حديقـة الـورد» فلا نجـد إلا قـصائد اليازجيـة إلى التيمورية. ومنها شكر على الهدية:

قـــد أعـــاد الزمـــان عائـــشة فيـ ـها فعاشـــت آثـــار علـــم قـــديمِ
هـام قلبـي علـى الـسماع وأمـسى ذكرهـــا لـــذَّتي وفيـــهِ نعيمـــي

وردًّا على رسالة:

يـا نـسمةً مـن أرض وادي النيـل وردَتْ فأطفــتْ بالــسلام غليلــي
نفحــتْ بلبنـــان ففـــاح أريجُهـــا سـحرًا بأشـهَى مـن نـسيم أصـيلِ
عـزَّ اللقـاءُ علـى المـشوق وللمُنـى عنـدي حـديثٌ لـيس بـالمملولِ
وعـلامَ لا أهـوى عُـلاكِ ومـا الـذي بهـواي فيـك تُـرى يقـول عـذولي؟
أنت الفريـدة في النساءِ، فكيف لا أهــوى حبيبًــا بــات دون مثيــلِ؟
علَّمتني قول النسيب، وهجت بي مـــا هـــاج حـــبُّ بثينـــة بجميـــلِ
شـوقي لمجلـسك الكـريم، وإنـهُ شـوق الطـروب إلـى كئـوس شَـمولِ

ثم تشكر على ما في الرسالة من ثناءٍ شعريٍّ:

ولقــد أفــضْتِ علــيَّ منــه لآلئًــا حـسدت بهـا جيـدي كـرائمُ جيلـي

مـن كـل قافيـة كأبكـار الـدُّمى ترنـو إلـيَّ بنـاظرٍ مكحـولِ
وافـتْ تُحيِّينـي فأحيـت مهجـةً طابـت بلـثم المرشـف المعسـولِ
بـذلتْ لـيَ الـودَّ الـذي استمنحتهُ فهتفـتُ يـا بـشرى بـأكرم سـولِ!

وفي قصيدة أخرى على كتاب «نتائج الأحوال»:

فتـاةٌ زيَّنـتْ جيـد المعـالي بـدرٍّ مـن حُلـى الآداب رطـبِ
أهـيم لهـا علـى بُعـدٍ، ومـاذا علـى الأقـدار لـو سـمحت بقـربِ
علـى مـصر الـسلام وسـاكنيها ومـا فـي مـصر مـن مـاءٍ وتُـربِ
علـى ربـعٍ بـهِ قلبـي مقـيمٌ ومَـن لـي أن أقـيم مكـان قلبـي
رأيـت نتـائج الأحـوال فيـه ممثَّلـةً تلـوح بغيـر نقـبِ
لتيموريَّـةِ العـصر المُحلَّـى بمـا نـسجت يـداها كـلُّ حقـبِ
أدبيـة معـشر شـرُفت أصـولًا وسـادت بـين أقـلام وكتـبِ

ولا نـدري مـا إذا اجتمعـت الـشاعرتان بعـد هـذه المراسـلة يـوم جـاءت وردة اليـازجي مـصر سـنة ١٨٩٩م قبـل وفـاة عائـشة تيمـور بثلاثـة أعـوام. ففـي أبيـات الحنين إلى مـصر لهجـة صـادقة، رغـم أن موضوع الأبيات من الموضوعات التي تتطلب المجاملة لا سيما في ذلك العصر؛ حيث لـم يكـن الـصدق غـرض الـشاعر، وكـان ينـدر مـن الكتَّاب الذي يُعنى بأمانة التفكير والتعبير.

أقول: «في ذلك العصر»؛ مع تمام العلم بأن أكثر ما يتهاداه الأدباء والشعراء في أيامنا من هذا النوع وإن صار بعضهم أحرص على كرامة آرائهم وإحساساتهم.

(ب) ورود المودة والشوق

قالت اليازجية للتيمورية:

علمتني قول النسيب، وهجت بي ما هاج حبُّ بثينةٍ بجميلِ

إلا أني أشك في أن التيمورية وحدها هاجت عند «وردة العرب» ما هاج حبُّ بثينة بجميلِ. وأرجح أنها ككلِّ قلبٍ حسَّاس تعلمت ذلك القول في احتياجها إليه، لأن الحبَّ لغة طبيعية لا بدَّ أن تستوفي حقَّها من الوجود بصورةٍ من الصور. وقد كتبت في المودَّة والشوق أبياتًا قلائل إلَّا أنها تستمد من عاطفة تملأُ القلب رغم التقيُّد في التعبير عنها بالمعاني والاستعارات المألوفة. ففي معارضتها لقصيدة ابن زُريق البغدادي حيث تجد ما لا مندوحة عنه من جريان «الأدمع كغوادي السحب» و«ذوب الأضلع من الأشواق»، إذا بنا نعثر على هذا البيت البسيط الصادق حيث نعلم أن القلب المحبَّ:

ما زال يصبو إلى ربعٍ أقام بهِ قلبٌ له ساقه شوقٌ يشيِّعهُ

ليس هذا البيت من أجمل أبيات وردة اليازجي، ولكنه من أصدقها. وهي وإن أخطرتنا في العنوان أن الأبيات قيلت في «صديقة» فنحن ندرك أن منها ما هو موجَّه إلى «صديق». وإنما أخفيت وراء برقع التأنيث في العنوان مجاراةً لحُكم المجتمع الذي

كان يقضي على المرأة بكتمان عواطفها، حتى في الشعر. أيمكن أن يكون هذا الخطاب «لصديقة»:

رحل الحبيب، وحُسن صبري قد رحلْ   فمتـى يعـودُ إلـى منازِلـه الأُوَلْ
وتـضيء أرضٌ أظلمـت مـن بعـدهِ   وتقـرُّ عينـي باللقـا قبـل الأجـلْ
يـا غائبًـا والقلـب سـار بـأثرهِ   شـوقي مقـيمٌ فـي فـؤادي كالجبـلْ
إن كنت غبت عن العيون مهاجرًا   فجميل شخصك في فؤادي لم يزلْ

أما كيفية سير القلب في إثر «الغائب» وإقامة الشوق في ذلك القلب باسم «الفؤاد» «كالجبل»؛ أي كيف يذهب القلب ويبقى في آنٍ واحدٍ وفي بيتٍ واحدٍ، فمن الأمور التي لا يعرِفُ أسرارَها إلا الشعراءُ والعاشقون.

وفي رسالة فراق أخرى:

منـي الـسلام علـى ديـار أحبتـي   كالمسك تحمله الصبا إذ هبَّتِ
قسمًا بذاك الرَّبع، قبلي ما صبا   إلَّا لربـعٍ فـي ربـاه جنتـي
يـا حبـذا تلـك الـديار وإن تكـن   ذابـت عليهـا بالـصبابة مُهجتـي!

ومثلها:

مني السلام على الذي هجر الحِمَى   ... ...
الـشوق زاد مـن البعـاد تحـسُّرًا   والنوم صار على العيون محرَّما
والـصبر عِيـلَ لهجـرهِ ولبعـدهِ   والبدر غاب وقُطرنا قد أظلما
يـا راحـلًا أضـحى فـؤادي عنـدهُ   وبقيت من وجدي أراعي الأنجما
فمتـى أفـوز مـن الحبيـب بنظـرةٍ   وتقرُّ عيني بعد ما قطرت دما

طال البعاد على الكئيب المرتجي أن يجعل الله اللقاء مقدَّما

وأخرى:

جزْ يا نسيم على وادي النقا سحَرا وسل عن الصحب هل تلقى لهم خبرا
وحيِّهم عن محبٍّ لا يزال على عهد المودَّة، طال البعد أم قصُرا
يا جيرة الحيِّ، هل عَودٌ نؤملهُ ويا ليالي الهنا، هل ترجعين، تُرى؟
أحبابنا، ما أمرَّ العيش بعدكمُ وهل يطيب لقلب بات منفطرا؟

وإليكنَّ نشيد الابتهاج بالعودة بعد البعاد:

زار الحبيب فزار أجفاني الكرى ودنا سرورٌ كان عن قلبي سرى
أهلًا بمن أخذ القلوب وديعةً وأعادها معه تخوض الأبحرا
إني ظننت لقاه وهمًا كاذبًا إذ كان في عيني يظلُّ مصوَّرا
أهديته درَّ الكلام منظَّما يبدو لدى دُرر الدموع منشَّرا
لا ردَّ أيام السُّرى بعد اللقا من ردَّ أيام اللقا بعد السُّرى

وجميع هذه المعاني على سذاجتها هي أول ما يخطر للمحبِّ شاعرًا كان أم فيلسوفًا أم فلاحًا أمِّيًّا يعمل في الغيطان؛ لأن عاطفة الحبِّ التي تنشر آفاقًا فيحاء لامعة تترقرق فيها عجائب الوجود، تحوِّل في الوقت نفسهِ الحياة إلى أبسطها بتحويلها مجموع الإنسانية وحصرها في شخص واحد، وعاطفة واحدة، وأملٍ واحد.

ولكن مرَّ على «وردة العرب» طور الصِّبا والكهولة، واستقرَّت العواطف بحكم الأيام وبحكم الأحزان. وسكنت الإسكندرية على

مقربة من ولدها فإذا بتذكارات الشباب تعاودها منغِّمة في قلبها أنغام الإيقاع والموسيقى الشعرية، فقالت في التذكار والشوق إلى لبنان:

يـا رُبـى لبنـان، حيَّـاكِ الحيـا وسـقى تربـك هتَّـان الغمـامْ
يـا ربـوع الأنـس، يـا دار الـصفا، يـا جنـان الخلـد، يـا أهنـا مقـامْ
حبَّـذا لبنـان مـع غاباتـهِ حبـذا تلـك الـصحاري والأكـامْ
وخريـر المـاء فـي تلـك الرُّبـا كحنـينٍ مـن محـبٍّ مـستهامْ
حبـذا منـه ربيـع قـد حكَـى معـرض الأزهـار يزهـو بابتـسامْ
أنـت لـي يـا خيـر أرضٍ جنَّـةٌ جمعـت كـل سـرور وسـلامْ
حبـذا أيـام أُنـسٍ فيـك يـا وطنـي المحبـوب زالـت كالمنـامْ
طالمـا هـيَّج لـي تـذكارها شـجنًا يُـشعلُ فـي قلبـي ضـرامْ

(ج) ورود الغَم والحزن

هنا ننتقل إلى الورود القاتمة، ورود الموت والتأبين المنثورة على القبور. قصائد الرثاء هي النصف الأكبر من هذا الديوان. وجرت الشاعرة في هذه القصائد على عادة عصرها في تأبين العظماء والعلماء والأصدقاء، وفي وضع تواريخ للوفيات وللأضرحة. فتبدأ هذه المراثي عادةً بالحِكَم الشائعة في فلسفة الموت والعجز عن مصارعتهِ، وفي أنه لا يرحم أحدًا. كقولها في رثاء مارون النقاش:

الموت للناس كالجزَّار للغنم فليس يترك من طفلٍ ولا هرمِ

وفي رثاء الأمير أمين رسلان اللبناني:

كـأس المنيـة دائـرٌ بـين الـورى ... يـسقي الكبيـر ولا يفـوت الأصـغرا
مـا هـذه الـدنيا بـدار إقامـة ... إلا كطيـف الحلـم فـي سِـنة الكَـرَى
كـلٌّ إلـى هـذا الطريـق مـسافرٌ ... لا بـد منـه مقـدَّمًا ومـؤخرًا
المـوت لا يُبقـي صـحيحًا سـالمًا ... إلَّا أتـاه بعلـةٍ فتكـسرا
هـذا أميـر المجـد بـات موسَّـدًا ... بـضريحهِ المبـرور محلـول العُـرَى
هـذا هـو الـسيف الـصقيل أصـابه ... سـيف مـن القـدر الـذي قـد قـدَّرا
يـا مـن تيتَّمـت الـبلاد لفقـدهِ ... وتوشـحت ثـوب الـبلاد الأغبـرا
كانـت بإمـداد الأمـين أمينـةً ... والـدهر لـم يمـدد إليهـا خنـصرا

وفي رثاء السيدة كاتبة بسترس:

داعـي المنيَّـة فـي البريـة قـد دعـا ... لينبِّـه الغرقـان فـي سِـنة الكـرى
سكر الجميع بحبٍّ ذي الدنيا فما ... فـاق امـرؤٌ مـنهم ولا أحـدٌ صـحا
فـي كـل يـوم قـام ميْـتٌ منـذرٌ ... يـدعو، ومـا مـن سـامع ذاك الـدُّعا

وهذا البيت الجميل في بساطته ومتانته:

يـشقى ويبني المرء طول حياته ... والمـوت يـأتي هادمًـا مـا قـد بنَـى

والغريب أنها تجد سبيلًا إلى تفسير الموت على ذلك النحو من «الحكمة» عند وفاة طفل لها تقول إنه كان في غاية الذكاء:

زوِّد الـنفس قبـل شـدِّ الرحـالِ ... إنَّ هـذي الحيـاة طيـف خيـالِ
واصـحبنَّ التُّقـى أمامـك مـصبا ... حًـا لتجلـو ظـلام تلـك الليـالي

وبعد عشرة أسطر بهذه اللهجة تخاطب الطفل قائلة:

يـا هـلالًا قـد احتـوى نـور بـدر   كيــف لــو تــمَّ نــورُك المتلالِــي

وليس هذا الطفل بالعزيز الوحيد الذي خلَّف لها الحسرة، بل تُعَدُّ وردة اليازجي بحقّ شاعرة الرثاءِ والتأبين فهي رَثَتْ إخوتها الستة وأختًا، ورَثت والدها وزوجها وولدين لها وبنتًا. فتقول في رثاءِ أخيها حبيب الذي يظهر أنه كان شاعرًا أيضًا:

يا عين وردة، في الأسحار والأُصُلِ   أبكـي لفقـد حبيـبٍ عنـك مرتحـل
ويـا فـؤادي تفتَّـت بعـد مـصرعه   فـإن سـيف المنايـا سـابق العَـذَلِ
ويـا سـلوُّ ابتعـد عـن مهجتـي أبـدًا   ويـا دمـوع انزلـي كالعـارض الهطـلِ
ويـا حمـائم نـوحي واندبيــه معـي   وغرِّدي بالأسى والحسن، لا الجذلِ
يا فارس اليوم أبشر قد أتاك على   قرب حبيب، فلا تشكو من المللِ
بــدرانِ أظلمــت الآفـاق بعــدهما   في مقلتيَّ، وضاقت بالأسى سُبلي

أما فارس الذي تذكره فهو أخٌ لها توفي قبل حبيب.

وفي رثاء أخيها نصَّار وقد توفي بمدينة زحلة:

يـا ويـح قلبـي كـم سـهمٍ أصيب بـهِ   فلـم يـزل بـدماه الجفـن يختـضبُ
مـصائبٌ لـستُ أدري مـن تكاثرهـا   فيــه علــى أيِّهــا أبكــي وأنتحــبُ
يا أرض زحلة، لي في حبها شغف   إذ في حماها شقيق الروح محتجبُ
أرضٌ لروحـي فـي أكنافهـا سـكن   لــذاك قلبــي لــه فــي حبهــا أربُ
يا قلب صبرًا على ما قد أُصبت بهِ   ولا ترُعْـك البلايـا وهــي تعتقــبُ
قد عوَّدتك الليالي الحزنَ من صِغر   حتى غـدوت إلى الأحـزان تنتسبُ

وهذا المعنى الأخير كررته في مرثاة أختها راحيل:

قد اعتاد قلبي الحزن من صغر سِنِّهِ فلم يدرِ ما طعم المسرَّة في العمرِ
فيا ليت كُلِّي ألسنٌ تنظم الرِّثا لتعربَ عن أحزان قلب بلا صبرِ
أرى الموت أحلى من حياةٍ حزينةٍ تمرُّ لياليها أمرَّ من الصبرِ
لئن جفَّ دمع العين مني هنيهةً ففي القلب دمعٌ سائلٌ أبدًا يجري
فيا أغصن البانِ اندُبنَّ معي على غُصين تلقَّته يد البين بالكسرِ!
ويا زهرٌ فلتذبل، ويا زُهر فاغربي على مَن كروض الزهر كانت وكالزهرِ

وفي رثاء والدها:

تكاثرت الأحزان في كبدي الحرَّى وزادت دموع البين في عيني الشَّكرى
وجارت على ضعفي الليالي وأوقدتْ بطيِّ فؤادي من نوائبها جمرا
فقدت أبي ما لي وللعيش بعده فموتي من عيشي غدًا به أحرى
حياة الحزين القلب موتٌ، وموتهُ حياةٌ يلاقي عندها الراحة الكُبرى
أيا عَلَم الشرق المبجَّل، والذي أقرَّت له بالفضل كلُّ الورى طُرًّا
ويا من بمسراه تيتَّمت العُلى كما يتَّم التأليفَ والنظمَ والنثرا
لقد ملتَ يا ركن العلوم فأوشكت لفرط الأسى أوراقه تُذهب الحِبرا
وقد غصت من خمر المنون بسكرة فها أنا لم أبرح بخمر الأسى سَكْرَى

وفي رثاء أخيها خليل الشاعر:

ألا أيها القلب الحزين، إلى متى تقاسي خطوب الدهر منقضَّةً تترَى
تراكمت الأرزاءُ من كل جانبٍ عليك، فلا يومٌ يمرُّ بلا ذكرى
فهلَّا براك الله من جنب صخرةٍ تمرُّ عليك الحادثاتُ فلا تفرَى
سلام على وجه الخليل، ونارهُ بطيِّ الحشا قد أفنت القلب والصدرا

على وجههِ الضاحِي الوسيم الذي لهُ   بقلبـــي رســـمٌ لا يفارقـــه العُمـــرا

وهكذا نراها تهتدي شيئًا فشيئًا إلى التعبير البليغ المجرَّد من التعمُّل؛ لأن الشعور بالحزن لا يترك مجالًا للتطويل، فتقول في رثاء زوجها:

كُلما كاد يُضمد الجرح ترميني   بجـــــرحٍ مفتـــــت الأكبـــــادِ
نكبـة عنـد نكبـة عنـد أخـرى   كاتـــصال الأســـباب بالأوتـــادِ
وأبـى الـدهر أن يمـنَّ بـنظم   غيـــر نظـــم الرثـــاءِ والتعـــدادِ
ســلبتني المنــون إنــسان عينــي   ورفيقـــي وعُمـــدتي وعمـــادي
يـا أليفـي فـي شـدتي ورخـائي   ونـصيري فـي النائبـات الـشدادِ
كيـف غـادرتَني بقلـبٍ جـريحٍ   يتلظَّـى فـي مثـل جمـر القتـادِ؟
كيف أغمضت طرفك اليوم عني   وغـدا القلـب منـك مثـل الجمـادِ؟

كلٌّ هذا كلامٌ صادق مملوء بالعبرات؛ عبرات مَن رثت كثيرًا من رجالها، وما زال القدر العنيف يرغمها على رثاء البقية الباقية. على أن أجمل مراثيها وأمتنها نظمًا وأشبعها عاطفة – ولو أن المعاني منها غير جديدة لنا – قيلت في ولدها أمين شمعون، وفي أخيها الشيخ إبراهيم.

تتجرَّد في مرثاة ولدها أمين شمعون من الخواطر التي ليست هي حزنها مباشرة. فلا تأمُّل هناك، ولا فلسفة، ولا دروس في حكمة الموت. بل تساؤل كيف تحتمل الحياة وقلبها مع ولدها دفين:

بـأيِّ فـؤادٍ بعـدك أبتغي الـسلوى وانـت فـؤادي فـي التـراب لـه مـأوى
أرى نـار قلبـي كـلَّ يـوم وليلـةٍ تزيـد لهيبًـا كلمـا زدتُ فـي الـشكوى
لفقـد أمينـي بـل حبيبـي ومهجتـي وريحان روحي مَن غدوتُ بهِ نشوى

ويمـضي قلـب الأمِّ فـي تـصوُّر أوصـاف الولـد التـي تجعلـه فـي عينها فريدًا بين الورى:

لقـد كـان فـي عينـيَّ أبهـى مـن الـدُّمَى وأعذبَ في قلبي من المنِّ والسلوى
أديـبٌ جميـلُ الخلـق والخلـق طـاهرٌ! شـمائل صـافٍ قلبـه طيِّب النجـوى
كصدر القنا، كالنصل، كالغصن في النقا كزهر الرُّبا، كالبدر، كالرشأ الأحوى
أحِـنُّ لمـرأى تُربِـهِ كـل سـاعةٍ وأهفـو لمثـواه ومـا تحتـه يُحـوَى
أيـا قبـره هـذا العزيـز، فـلا تـدع هوام البِلَى تهوي عليهِ كما تهوى
وحـافظْ علـى تلـك العظـام فإنهـا لكنـزٌ ثمـينٌ ليـت قلبـي لهـا مثْـوى
ويا فلـذة القلب الجريح الذي مضى به خاطف الأقدار يستعجل الخطْوَ
بـرغم فـؤادي أن أخـطَّ لـك الرِّثـا وأندب ذاك الوجه والمبسم الحلوَ
يفتِّـتُ قلبـي كـلُّ شـطر أخطُّـهُ فإن يمحُه دمعي السخين فلا غرْوَ

أيتها السيدات والأوانس!

أراكـنَّ تبكـين، وعزيـزٌ علـيَّ أن أكـون سـببًا فـي حملكـنَّ علـى البكاء؛ لذلك سأقصر عن تلاوة شيء من مرثاتها لأخيها الأخير.

الآنسة ميليا بدر وكيلة مدرسة الأمريكان للبنات تقف وتقول:
هو الإلقاء الذي يبكينا. ولكن لا تحذفي من المحاضرة شيئًا!
– رغم البكاء، ورغم هذه المناديل المنشورة في أيدي أخواتنا؟

– نعم رغم البكاء!

أصوات: لا بأس من قليل من الحزن والبكاء.

– حسنٌ يا سيداتي، وقد صدقتنَّ. لا بأس من البكاء على آلام الغير. ولابد في الشعر من الحزن والدموع؛ فقد قال إدجر آلن بو بعد كثيرين غيره: «إن العبقرية الشعرية حزينة في جوهرها، وإن الطبائع التي تدرك ذلك وتحبه تقرب من تلك العبقرية عند التعاطف في الشجو والكآبة.»

قلتُ إذن: إن شقيقها الشيخ إبراهيم كان آخر الباقين من إخوتها، فرثته من قلب متقطع لم يبقَ فيه صبر ومقدرة على الاحتمال، قلب يعرف أنه فقد أخًا تجددت بفقدهِ اللوعةُ على جميع الذين سبقوهُ، ويعرف كذلك أن الذي فقده صاحب شهرة ذائعة فلا تنسَ الأخت في الحزن سبب افتخارها:

لم يبقَ للحزنِ لي صبرٌ ولا جلَدُ	ولا دموعٌ تفي لي حقَّ من فُقدوا
وضاق صدري مما قد تراكم من	حزني ولم يبقَ لي للاحتمال يدُ
فارقتَني يا شقيق الروح مبتعدًا	فما حياتي وأنت عني مبتعدُ؟
يا قائل القول ما زلَّت بهِ كلمٌ	وصاحب الرأي حقًّا ليس يُنتقدُ
تسير في إثرهِ الأفهام قاصدةً	مواقع الحق حيث الصدق والرَّشدُ
فضلٌ سيبقى بقاءَ الدهر متصلًا	عليك لا ينقضي أو ينقضي الأبدُ
أضحى بهِ لا ينال الموت رفعته	حيًّا أكاد أراه حيث أفتقدُ

ثم تنسى هذا إذ تتجسَّم أحزانها في شهيق واحد:

يا صخر، بنتُ الشريد اليوم منتشرٌ لها عليك قوافٍ في الهوى شُردُ
هيهات ما فقدتْ صخري، ولا نظمتْ دمعي، ولا وجدت خنساءُ ما أجدُ
بكت وحيدًا، وأبكي ستةً ذهبوا لكلٍّ محمدةٍ بين الورى وُجدوا

تُوفِّيَ الشيخ إبراهيم في مصر، ثم نُقلت رفاته إلى بيروت سنة ١٩١٣م، فرافقتها الشاعرة الحزينة. وهناك على ضريح العائلة تُليت منها أبيات، هذه بعضها:

يا قبر اهنأ بما أوتيتَ من ظفر فقد حويتَ كرام البدوِ والحضرِ
حويتَ مَن هزَّ ركن العلم مصرعُهم من بعد ما ألبسوه أفخر الحبَرِ
يا قبر قد عاد إبراهيم، وا أسفي يضوي إلى أسرة من أتعس الأسرِ
من لي بخطٍّ يراعٍ منه مبتكَرٍ كيما أخط رثاءً فيكَ مبتكر!

وفي حفلةٍ أقيمت لتأبينهِ في بيروت قالت في قصيدة شكر للمؤبِّنين:

اليوم ردَّت مصرُ ما أخذت ويا أسفي، فقد ردَّته في الأكفانِ
لم ينسَ عهدكم القديم وقد أتى كي لا يزال مجاور الأوطانِ

واشترك السوريون في البرازيل في إقامة تمثال للشيخ إبراهيم؛ فأرسلت قصيدة إلى شكري أفندي الخوري صاحب جريدة «أبي الهول» وصاحب الاقتراح. ومن تلك القصيدة:

أكرِمْ بما جئته يا سيدًا عملًا يزيِّن اسمك بين العرب والعجمِ

دعوت قومي إلى ما ترثيهِ لهم   صنعًا جميلًا وبرهانًا لودِّهِمِ
يا سادةً جمعتهم نسبة الوطن المحـ   ـبوب جمع الثُّرَيَّا غير منفصمِ
جدَّدتمُ شخص من نهفو لرؤيتهِ   كأنَّما هبَّ مبعوثًا من الرممِ
وما مديحي لكم حبرٌ على ورقٍ   بل خُطَّ في لوحِ صدري شكركم بدمي

لا تصدُق على هذه الشاعرة تهمة ألحقوها بالنساء؛ وهي أن الرجال يكتبون لهنَّ، بل كانت هي صاحبة أشعارها؛ وأكبر شاهد على ذلك –كما قال لي دولتلو سليمان أفندي البستاني – أنهم كانوا بديًّا يزعمون أن والدها وأخويها حبيب وخليل ينظمون لها. فماتوا فرثتهم. فقال الناس: ولكن الشيخ إبراهيم حيٌّ، فهو ناظم المراثي باسمها. فتوفي الشيخ إبراهيم فرثتهُ بأبياتٍ هي من خير شعرها في الصدق والأمانة.

وعلى ذكر الشيخ إبراهيم أقول: إنهم سيحتفون قريبًا بنصب تمثالهِ في إحدى ساحات بيروت العمومية. على أن شاعرة آل اليازجي لن تحضر ذلك الاحتفال، ولن ترسل فيه دمعة وزفرة .. إن جسدها يرقد تحت ثرى مدينة الإسكندر حيث تثوي على هدير البحر الذي ما فتئ مهمهمًا في مسامع الأحياءِ والأموات ..

الفصل الرابع

نثرها

يقول جورج أفندي باز: إنها نشرت بعض المقالات في الصحف والمجلَّات. وأكبر الظنِّ أنها جُمعت كلها في «حديقة الورد»؛ حيث نجد تقريظ مجلَّة الفردوس وفتاة الشرق وغير ذلك، فضلًا عن مراسلتها لعائشة تيمور.

على أن ليس في تلك السطور غير المجاملة والثناء. والرسالة التي عبَّرت فيها عن رأيٍ اجتماعيٍّ نُشرت في «الضياء» قبل أن تُجمع في «حديقة الورد». ونهتم بهذا الرأي بعد أعوام؛ لأنه يعالج مشكلًا من مشاكل وقتنا. ومعلوم أن المشاكل الاجتماعية وغير الاجتماعية لا تُحلُّ في يوم وليلة.

بل تقتضي مرور الزمن لتتناولها الأقلام بالتمحيص. ثم يأتي المران بنبذ ما يَحسن نبذه، واستبقاء ما هو في مصلحة المجتمع؛ فهي تنتقد المرأة الشرقية لتفرنجها حتى صارت تخجل باستعمال لغتها والسير على عادات وسطها وتهزأ بقومها لتفاخر بأنها أجنبية؛ ظنًّا منها أن كل الارتقاء في اقتباس قشور المدنية وظواهرها في الأزياء والأساليب وتلك الفوضى في السلوك التي تسميها خطأ باسم

الحرية. في حين – تقول السيدة وردة –كان على المرأة الشرقية أن تنظر إلى أختها الغربية من الوجه الآخر؛ فترى اهتمامها بالأمور الجدية، وبراعتها في العلوم والفنون وسائر دوائر النشاط الإنساني، وكيف أن المرأة الغربية – رغم تأنقها – تقوم بواجبها نحو الأسرة والمجتمع واللغة والوطن. وتستحثُّ اليازجيَّةُ بنات الشرق للرجوع عن ضلالهنَّ وإكبار اللغة العربية – وإن هنَّ تعلمن اللغات الأخرى وأحببنها – وذلك تشبُّثًا بعاطفة الوطنية ورغبة في النفع القوميِّ. ولتجعل نداءَها أبقى أثرًا تعمد إلى ذكر بعض شهيرات العرب من كواتب وشواعر، وتضرب بهنَّ المثل لتستفز همَّة بنات العصر وتدفعهنَّ إلى العناية بصالح الأمة.

وهذا النداء الذي سمعنا مثلَه ولكن بلهجة أخرى من عائشة تيمور، وبعدئذٍ من باحثة البادية، نصغي إليه اليوم باحترام وشكر وافتخار. نصغي إليه باحترام؛ لأنه صوت الإخلاص، صوت الغيرة والحماسة، ولأنه جليل نبيل. ونصغي إليه بشكر؛ لأننا إن نحن سرنا اليوم خطوةً في طريقنا على بصيرة فبفضل هؤلاء الذين تقدَّمونا وتركوا لنا صيحاتهم المباركة يتردد بيننا صداها المتزايد بانضمام أصواتنا إلى أصواتهم. ونسمع هذا الهتاف بافتخار؛ لأن نداء الموتى لم يذهب ضياعًا، بل نهضت المرأة في مصر، في سوريا، في جميع أنحاء الشرق العربي بمقدار ما يسَّرَ لها الوسط والأحوال. نهضت

تتطلَّع إلى الحرية النبيلة وتتعرَّف حدودها، وتعزز قوميتها ووطنها ولغتها.

نسمع هذا الهتاف بافتخار؛ لأن نفوسنا اتسعت وعمقت فصارت ترى للأدب والشعر دورًا ساميًا جليلًا. مضى وقت التقريظ والمدح والثناء وتنميق الألفاظ. وتناول الأدب جميع مظاهر الحياة القومية في الأخلاق والتهذيب والفنِّ والاجتماع والسياسة، وترويج الدعوة الوطنية للنهوض بالنفوس إلى آفاق العلوِّ والنخوة والشمم والاستقامة. نفهم الأدب اليوم كما يجب أن يفهمهُ العائشون في هذا العصر، إنه لحافل بعجائب العلم والاكتشاف والاختراع، هذا العصر الذي سخَّر فيهِ الإنسان العناصر لخدمتهِ وحاجتهِ. العجائب أصبحت مألوفة لدينا. فأيُّ عجيبة في التليفون، والتلغراف اللاسلكي، والكهربائية، وفي قاطرات الحديد، والسفن والبواخر والطيارات، وأشعة رنتجن التي تنفُذ إلى داخل الجسم فترى منه الخبايا والتفاصيل كمن ينظر إلى سطحهِ! وأي عجيبة في عديد الاكتشافات في الرياضيات والكيماويات، في قياس الأشعة، في تحديد دورة الكواكب، في التخاطب بين القارات، في معجزات الطب والجراحة والهندسة! إن عجائب العلم لا تُحصى، وهي في خدمتنا في كل شأن من شئوننا، في حياتنا الفردية والمنزلية، في يقظتنا القومية، في مناهضة المراتب وثورات الأمم.

نحن نعرف أن نُعجب بما تركه الذين تقدَّمونا، ولكن في تحدِّيهم التقهقر لا التقدُّم. هم قالوا كلمتهم الموافقة لعصرهم. فعلينا أن نقول الكلمة التي توافق عصرنا. وردة اليازجي ترى كل المنفعة من علم المرأة في تربية البنين، ونحن نوافقها على ذلك. وسيوافقها كل جيل حصيف في كل عصر، على أن هذا ألزم واجبات المرأة. وأن أكبر فخرها أن تكون مليكة المنزل وعبدتهُ، وتعزية الرجل، والبطلة الكبيرة في سكوتها وانزوائها، التي تتربَّى في حضنها الذراري وتتهذَّب بين يديها الشعوب. ولكنَّ تأثير المرأة ليس مقصورًا على هذا؛ لأن الأمومة ليست اختيارية، وقد تكون المرأة أفضل أُمٍّ وأفضل زوجة فيظل عليها أن تتمَّ أمورًا أخرى شتَّى.

المرأة اليوم تستطيع أن تعمل وتؤثر في جميع الجوانب. تعمل بتذكية العاطفة الوطنية في أبناء الوطن ببث الشهامة والنبل في نفوس رجاله، في تعزيز كيانهِ المعنوي بالحرص على مصالحهِ الجزئية، بالسهر على مهود أطفالهِ، بتكييف النفوس الغضَّة من فتيانهِ، بترقية لغتهِ، بنشر فكرهِ، بتمجيد البليغ من أقلامه، بترويج صناعتهِ وفنهِ ومنسوجاته، بالاقتصاد، وإحكام وضع الأشياء في مكانها. تؤثر بإنعاش روح الوطن، بتقدير تاريخه، بالثقة في مستقبله، بعبادةِ شاراتهِ وأعلامهِ!

الشرق ينهض، أيتها السيدات، وهنيئًا لمن أدرك كل ما في المسئولية من فخر، وكل ما في العمل من نصر. الشرق ينهض ولو كانت جباه رجالهِ مثقلة بالأحزان، وجماعات من شبيبتهِ منصرفة إلى اللهو والنسيان! الشرق ينهض، وهنيئًا لكل من كان بعملهِ وقلمهِ وصوتهِ ذا أثر في تكييف النفوس! وهنيئًا لطلاب العلم بالممكنات التي يتمتعون بها ممتازين بذلك عن كل جيل سبقهم؛ لذلك كان ما يُنتظر منهم أعظم من كل ما جاء بهِ غيرهم.

علمت أمس الأوَّل أن سيدات بيروت اكتتبن لصورة وردة اليازجي وأهدينها إلى دار الكتب الأهلية في تلك المدينة؛ لتُرفع صورة الشاعرة بين صور كبار الرجال والعلماء.

هذا في بيروت. وحسبها في تقدير فضلها هنا أن تجتمع اليوم على ذكرها السيدات المصريات وغير المصريات فيُحيين من اسمها النفحة الشجية!

وليكنْ لكنَّ من هذه الذكرى أثرٌ يبقى بعد هذا الاجتماع.

فلتحمله ربَّات البيوت؛ لأن «وردة العرب» كانت بنتًا مباركة، وأختًا حصيفةً، وزوجة وفيَّة، وأمًّا صالحة! ولتحمله ناظرات المدارس والمعلمات؛ لأن الشاعرة بتعاطيها التدريس وعنايتها بأخوتها وأخواتها في حداثتهم كانت مثالًا يُحتذى ومثلًا تُستمدُّ منه التعزية في مهنة التعليم الشاقة النبيلة.

ولتحمله الطالبات اللاتي سيجتزن عمَّا قريبٍ عقبة الامتحان السنوي. فاليازجية كانت تلميذة نشيطة وإن لم يكن لها وسائطهن، وظلت طول حياتها تطلب العلم وتوصي بالمعرفة والاستنارة. وليقُل ذكرها لكل منا إن العمل الصالح الذي تأتيه المرأة يتخطَّى جيلَها ويخدم الأجيال التالية، كما أن حبة القمح في أرض خصبة تضمن تغذية الجماهير في مقتبل العصور.

فلتذكر نساءُ مصر وردة اليازجي وأخواتها السوريات الناهضات كما تذكر نساءُ سوريا عائشة تيمور وباحثة البادية وأخواتهما المصريات الناهضات! وليتأثرن بذكرها وفضلها كما تتأثر بنات سوريا بنهضة المرأة المصرية فيتحمسن لها ويفاخرن بها!

وحسبي ابتهاجًا – أنا ابنة القطرين – أن أرسم صورةً ولو واهية من امرأة شرقية لأخوات شرقيات أحبُّ منهن الوطنية، واهتف مثلهنَّ هتاف الحماسة، وأنشد من قدوتهن التقدم والعرفان وخير الأوطان!

كلمة أخرى

فاتني أن أذكر تحت صورة وردة اليازجي المنشورة في صدر هذه الرسالة أن «الكليشيه» تكرَّمَتْ بها إدارة «اللطائف المصورة». فَلْتقبلْ خالصَ الشكر على هديتها هذه.

وإذ كنتُ أصلح «بروفة» الملزمة الأولى فُوجِئنا بنَعْيِ سليم سركيس الذي أوحى إليَّ هذا البحث، والذي نزيد شعورًا بفقده وبالفراغ الذي تركه يومًا بعد يوم.

أَلَا فَلْتطلَّ روحُهُ على هذه الصفحات من عالَم البقاءِ باسمةً لآراء إخوانها وأصدقائها على الأرض، متلقِّيةً تحيةَ الوداع ونفحةَ الأسى التي يسيرها الأحياء نحو الأرواح العزيزة في موكب الذكريات المتحددة.



الفهرس